غرام « سعد زغلول »

للدكتور زكي مبارك

دَرجتُ في الأعوام الأخيرة على كتابة مقالة سنوية في (الرسالة) بمناسبة ذكرى « سعد » ، رعايةً لفضل هذا الرجل في بعث الحياة الأدبية عند اختلافه مع زملائه الذين شاطروه أعباء الثورة المصرية ، لا رعايةً لمقامه الوطني « وهو مقام محفوف بالإجلال عند جمهور المصريين والشرقيين » ؛ وإنما أحترس هذا الاحتراس لأن حقدي على « سعد » كان يفوق الوصف ، ومقالاتي في الهجوم عليه كانت أقوى ما كتبت في صدر شبابي ، فقد كانت مبادئ الحزب الوطني غزت قلبي غزواً عنيفاً

أكتب هذا والحزن يعصر قلبي ، فقد انقضى ذلك العهد ، وخمدت النار التي كانت تتأجج في صدري ، ولم أعد أقبل الانضمام إلى أي حزب من الأحزاب السياسية

كانت لنا مبادئ نقتتل في سبيلها اقتتال المجاهدين الصادقين ، وكنا نرحّب من أجلها بالسجن والاعتقال طائعين فرحين ، مبادئ سليمة تفرّق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ، في غير بغي ولا عدوان ، فعلى عهدها الكريم ألف تحية وألف سلام !

ولو لم يكن هذا الحديث متصلاً بذكرى « سعد » الذي عانى ما عانى من بلايا النفي والاعتقال لطويته بلا تردد ، مراعاةً لظروف هذه الأيام ، فلتكن هذه السطور فنّا من الإحياء لذكراه بين أبناء هذا الجيل

* * *

حديث اليوم عن « غرام سعد زغلول » ، وهو حديث لم يُفْضِ به إلا لأفراد قلائل ، فما ذلك الحديث ؟

أذكر أولاً أنني لن أجترح إثماً ، ولن أسنّ سنّة سيئة ، حين أتحدث عن غرام رجل عظيم شرّق صيته وغرّب ، فمن المحال أن تخلو قلوب العظماء من صبَوات وأهواء

يضاف إلى ذلك أنني سأتحدث يوماً عن « غرام مصطفى كامل » ، الغرام الذي جعله من كبار الخطباء بلغة الفرنسيس ، والذي فرض عليه أن يهتف هتاف الشوق إلى هواه ، وهو يعاني سكرات الموت ...

وأذكر ثانياً أن الدار التي سيجري اسمها في الحديث عن « غرام سعد » لن تتألم ولن تتأفف ، لأن سعداً أحبها وأحب أهلها حب الشرفاء ، ثم ارتدّ عنها بحسرة دامية لم يُخفّ كربها إلا بعد سنين تزيد على الخمسين

فكيف كان « سعد » حين استعر في صدره ذلك الحب ؟

كان طالباً في الأزهر الشريف ، وكان طلبة الأزهر في العهود السوالف على جانبٍ كبير من التوقر والاستحياء

ولو شئت لقلت : إنه كان من الصعب على أي فتًى مصري أن يتخيل كيف تكون المرأة وهي عارية ؛ ولو شئت لقلت أيضاً : إن التصون كان مما يتباهى به الفتيان ، في ذلك الزمان ، قبل أن تصاب الدنيا بأوضار التمدن الجديد

وكان « سعد » أزهريًّا عفّ القلب ، ولم يكن يعرف من نعيم الحواس غير اللحظات التي يقضيها مع زميله ابراهيم الهلباوي متربّعَيْن على الرصيف بجانب المحكمة المختلطة لمشاهدة الرائحات والغاديات في عصرية كل خميس

فهل تكون تلك العصريات علّمتْ سعداً معاني الغزل اللفوف ؟

هل تكون أوحت إليه أن قلب الفتى قد يتوهج من حين إلى حين ؟

حين قصّ علينا الهلباوي بك — رحمه الله — تلك الحكاية لم يشأ أن يطنب في الشرح والتعليق ، فقد كان في المجلس رجال يؤذيهم التبسط في مثل ذلك الحديث ولم أكن أنا أعرف أني سأتكلم عن غرام سعد بعد حين أو أحايين

المؤكد أن سعداً قضى شبابه في تصون وعفاف ، ولولا ذلك لكان من العسير أن يظل في نشاطه المعروف إلى أن يجاوز السبعين

ومن هنا نعرف كيف اصطلى بنار الوجد في صباه ، فالشاب المصون يعاني من الغرام لذعات أحر من لذع النار ، لحرمانه من التصعيد الذي يجود به الحب الأثيم

فأين كان حب سعد ، حبه السليم من آفات العبث والمجون ؟

أطلّ يوماً من غرفته فرأى في دار الجوهري فتاةً كخيلة

العينين مُشرقة الجبين ، ثم غضّ بصره بسرعة حين تذكّر أن ما زاد على النظرة الأولى حرام لا حلال

وما احتياجه إلى نظرة ثانية وقد رُسمتْ صورة الفتاة على ألفاف قلبه رسماً جعلها أقرب إليه من متن الألفية ، وأوضح من شرح ابن عقيل ؟

هل يُطلّ من النافذة فيراها مرة ثانية ليتأكد من التماثل بين الصورة والأصل ؟

لا بأس ، ولكن الفتاة لم تكن تظهر فى صحن البيت إلا عند الأصيل ، وهو الوقت الذى يعود فيه فتحى افندى من المدرسة ، وهو شقيقه الذى صار فيما بعد فتحى باشا زغلول ، وكان الشيخ سعد يراعى فتحى افندى ، ويتعمد الظهور أمامه بصورة الناسك المتعبد ، ليصرف عنه سوء التلفت إلى النساء ، فقد كان يعرف أن التلاميذ « الأفندية » معرّضون من هذه الناحية لأخطار تزلزل رواسىَ الجبال

النظر إلى المرأة حرام ، فما حكم الشرع فى سماع بُغام الملاح ؟

وإنما عرضَ له هذا الخاطر الطريف ، لأن مناغاة الفتاة لأترابها كانت تداعب أذنيه من وقت إلى وقت ، وكان شديد العَجب من أن تكون لفتيات الحواضر أنغام لم يسمع مثلها من بنات الريف ، أنغام تصنع بلُبّه ماتصنع الراح بألباب الشاربين

ما حُكم الشرع فى هذه القضية ؟ أيستفتى أشياخه بالأزهر الشريف ؟ أيرجع إلى مطوّلات الفقه بالكتبخانة الخديوية[1] ؟

لا هذا ولا ذاك ، وإنما اكتفى بوضع القطن فى أذنيه عند سماع ذلك البُغام إلى أن يقضى الله فى أمره ما هو قاض

كان يتمنى أن تتاح النظرة الأولى مرة ثانية ، النظرة التى يُرمَى بها الفتى عن غير عمد ، وهى حلال على أرجح الأقوال ، ولكن آباءنا قبل ستين سنة لم يكونوا يسمحون لفتاة بالخروج من البيت حين تصبح وهي فى نضرة الغصن الفينان ، فمن المستحيل أن يظفر الشيخ سعد بنظرة بريئة من تلك الفتاة عند الخروج للدروس الصباح ، أو عند الرجوع لتناول الغداء

وهل كان الفتى الأزهرى الذى يصلى ويصوم يستبيح التطلع إلى بنات الجيران ؟ هيهات ثم هيهات ، فقد حلف على المصحف ليصيرنّ إلى آخر حياته وهو فى طهارة القلب المنيب

ثم يضطرم قلب سعد أعنف الاضطرام ، ويزداد بلاؤه بهواه المكتوم ، من يوم إلى يوم ، والفتاة لا تعرف أن بجوارها فتًى يدعو الله فى أعقاب الصلوات أن يجعلها نصيبه من دنياه ، أو يجعلها على فرض الحرمان نصيبه من الحور العين

ويمضى فيقلب كتب النحو والفقه والتوحيد ليحفظ ما فيها من الأشعار الغزلية ، ولا يكتفى بذلك ، بل يمضى فينسخ ديوان ابن الفارض ، ليتخذ منه سميراً يؤنس وحشته حين تخفت الأصوات فى دار الجيران

إن سعداً فلاّح وابن فلاّح ، والفلاحون يحمدون نار الصبوة بالزواج ، فما الذى يمنع من أن يسلك مسلك الفلاحين الشرفاء ، فيطلب القرب من أهل تلك المليحة الحوراء ؟

وهنا تثور مشكلة من أقبح المشكلات ، مشكلة اجتماعية يعانيها الحيّ الأزهرى فى جميع الأزمان ، وهى إصرار سكانه من كبار التجار على أن الأزهريين غرباء

لا جدال فى أن الأزهريين هم شرايين الحياة فى ذلك الحى ، وبفضلهم يحيا متاجر وتقوم أسواق ، ولكن هذا الفضل مجحود ، لعلة يحار فى فهمها اللبيب . وقد كانت كلمة « مجاور » كلمة مدح ، لأنها منقولة عن مجاورة الحرم النبوىّ الطاهر ، ثم صارت كلمة هجاء ، بسبب التحامل على الأزهريين ، فاعجبْ لكلمة ينقلها سوء المعاملة من مدلول إلى مدلول ، بلا موجب معقول !

ومع أن الشيخ سعد زغلول كان يعرف أن حيّ الأزهر حيٌّ غادر ختّال ، فقد قهره الهوى على أن يطلب يد ابنة الجوهرى ، ليسلم من وَقْد هواه ، وليعرف كيف يُقبل على دروس الأزهر بعناية والتفات . وهل من المحال أن يفى ذلك الحيّ مرة فى العُمر لشرّفيه من فتيان الريف ؟

تشجّع الشيخ سعد فطلب يد ابنة الجوهرى ، فردّهُ الجوهرى برفق ، وهو يجهل ما ينتظر عمامة سعد من سيطرة أدبية وسياسية على أبناء هذه البلاد

ورجع سعدٌ حزين القلب ، كاسف البال ، وقد خاب أمله فى هواه إلى آخر الزمان ، ثم نظر فرأى أن الفرار من الحيّ

(١) اسمها اليوم : دار الكتب المصرية

الأزهرى واجبٌ مفروض ، ليتجو من غمزات الذين شهدوا ردّهُ الأليم عن مناسك هواه . وأبناء الريف تؤذيهم ثرثرة السفهاء

لا بُدّ من ترك الحيّ الأزهرى ، ولكن أين يذهب ؟ وماذا يصنع ؟

إن أباه كان يرجو أن يصير من علماء الأزهر الشريف ، ومن أئمة الدين الحنيف ، فكيف يخلف ظن أبيه بلا تهيُّب ولا استحياء ؟

ثم بدا له أن الكرامة الذاتية من مقاصد الكرامة الدينية ، فخلع العمامة والجبة والقفطان ، ولبس الحُلة الأفرنجية واحترف المحاماة ، فأصبح وهو الأوكاتو سعد أفندى زغلول ، بشارع عابدين ، وأمسى مكتبه سامراً يلتقى فيه كرام الرجال

ولكن لوحة صغيرة كانت تثير جواه حين يدخل ذلك المكتب ، لوحة رُقِشَ فى صدرها الأبيض هذا البيت :

وإذا دُعيتُ إلى تناسى عهدكم ألفيت أحشائى بذاك شِحاحا

ولم يكن بدٌّ للقلب المجروح من دواء ، وهل يُداوَى القلب المفطور بغير العمل الموصول ؟

مرّ عامٌ وعامٌ وأعوام ، وسعدٌ يجاهد فى سبيل المجد ليعرف من ردُّوه جاهلين أنهم أضاعوا « جوهرة » لن يرى « الجوهرىُّ » مثلها ولو أضاع العمر فى البحث والتنقيب

ثم استجاب الله لدعوات الوالدَين الصالحَين ، فاقترن سعدٌ بفتاة كريمة العمّ والخال هى بنت مصطفى باشا فهمى رئيس الوزراء فى ذلك العهد ، وهى اليوم صفية زغلول أم المصريين ، أسبغ الله عليها نعمة الصحة والعافية ، إنه قريبٌ مجيب

وجاءت أيام فى إثر أيام ، وتنقّل سعدٌ من حال إلى أحوال ، إلى أن نفاه الإنجليز فى سنة ١٩١٩ بسبب قضية الاستقلال

ثم سمح الإنجليز بأن يسافر من مالطة إلى باريس ليقنع « مؤتمر السلام » بعدالة القضية المصرية إن استطاع

وعجز سعدٌ وأصحابه عن الوصول إلى قصر فرساى ، فرجع إلى مصر وهو آسف غضبان

فماذا رأى بعد الرجوع ؟

أقيمت له حفلتان فى الحىّ الأزهرى ، أولاهما فى دار البكرى ، وقد فرح بها فرحاً عظيما ، فقد كان يظن أن خذلانه فى الوصول إلى « مؤتمر السلام » قد يصرف عنه قلوب المصريين وفى تلك الحفلة هُتف عند دخول عدلى باشا بعبارة « تحيا وزارة الثقة » ، وهُتف لسعد باشا بعبارة يحيا « الشيخ سعد »

أما الحفلة الثانية فكانت ... أين كانت ؟

كانت فى دار الجوهرى ، الدار التى ردّت سعداً خائباً قبل أعوام تزيد على الخمسين

وجرى الهتاف لسعد : « يحيا الشيخ سعد »

والتفت سعد باشا ذات اليمين وذات الشمال ، فرأى أنه فى أمان من ثرثرة السفهاء ، وأن الشيخ القديم لن يغلب الباشا الجديد ، وأن من حق الأزهريين أن يفتخروا به مشكورين

ثم التفت الرجل مرة ثانية ذات اليمين وذات الشمال ، وسمح لعينيه بدمعتين مُحرقتين ، هما التحية لهواه الذى ذهب إلى غير معاد

هذا سعد باشا خليفة الشيخ سعد ، ولكن أين بنت الجوهرى ؟ وأين مكانها فى هذا الوجود ؟ أغلب الظن أنها ماتت وإلا فكيف صبرت عن خلع العذار لتقبّل الحبيب الذى انتصر على مكايد الزمان ؟

وأقام سعدٌ فى « بيت الأمة » يتلقى تهنئة الوفود بعودته سالماً من باريس ، وكان يمدُّ يده فينزع اللثام عن كل امرأة تعتصم بالحجاب ، وكانت حجته أنه يؤيد رأى صديقه الحميم قاسم أمين

ولعله كان يرجو أن يطلُع عليه القمر الجوهرى ، لو كان للقمر الآفل طلوع

لقد حدثتنى النفس بزيارة دار الجوهرى قبل أن أسطر هذا الحديث ، ولكنى خفت أن أضاف إلى المجانين

كان لى فيك هوًى ، يا دار الهوى ، فأين غرام سعد وأين غرامى ؟

إن اعتدل الميزان فسنكتب على بابك العالى سطراً يقول :

« هنا تهاوتْ أحلام وقلوب »

وأين دار الجوهرى ؟ لا تسألوها عن مكانها ولا تسألونى ، فقد ناب عنى وعنها أبو تمام حين قال :

لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديارُ خفَّ الهوى وتقضَّت الأوطارُ

وأنت ، يا سعد باشا ، ما رأيك فى هذا الحديث ؟ ألا ترى أنه من أشرف ما يتصل بتاريخك الجميل

زكى مبارك